رد على نقد « الظمأ والينبوع »

بقلم فاضل السباعي

عرفت الاستاذ حبيب الزحلاوي كاتبا واضح الرأي صريح الكلمــة مهما اوقعت في نفوس المنقودين من اثر ، وهو في ذلك لا تلين قناته امام صداقة او مودة توثق ما بينه وبين منقوده ، « فالخصومة الادبية – عنده – ضرورية واجبة » ليس لها قط من علاقة بالصداقة الشخصية . وقد اطلع على روايتي المجددة « الظمأ والينبوع » (١) ، وما كنت لانتظر ، يوم وافيته بنسخة منها الى عنوانه بالقاهرة ، ان اتلقى مديحا ... فحاسة الاستاذ الزحلاوي النقدية – كما يتراءى لي – اكثر اتجاها الى تحري العيوب في الاثر المنقود منها الى تلمس الجوانب الاخرى فيه . وهكذا جاء نقده لقصتي المنشور في العدد الماضي من « الآداب » ، جامعا لما رآه فيها من المآخذ وحدها .

وقبل ان اتصدى لنقد الناقد ، ارجو ان ابين للقارىء اني كنت نشرت في العام ١٩٥٩ مجموعة قصصية وسميتها بـ « ضيف مــن الشرق » (٢) بعنوان القصة الاكثر طولا في المجموعة ، تلك القصة التي كان لها عند القراء والنقاد « اصداء انتظمها رأيان على طرفي نقيض : رفعها فريق الى القمة العالية ، وهوى بها فريق اخر الى المهبط الداني » مما حدا بي الى اعادة وضعها مطولة ونشرها في كتاب مستقل صدر في العام الماضي تحت عنوان « الظمأ والينبوع » (٣) .

١ – يقول الناقد ، بعد ان عرض لملخص القصة في وضعها الاول : « ... وقد طاب لمؤلفها ان يمطها ويمغطها فجاءت طويلة تقع في نحــو مائة واربعين صفحة » ؟

وازعم انني لم « امطها » بقدر ما كان الطول فيها عائدا الى ثراء الحادثة وزيادة في عناصرها وشخوصها ، واما الحوار بين البطليــن الرئيسيين « سامي » و « هيلغا » فقد اثيرت فيه في غير موضع قضايا ما زلت احسبها اكثر التصاقا بالسياق وابعد عن تهمة المط والتطويل .

ويطيب لي ان اذكر هنا ما عرض له الكاتب اللبناني الاستاذ نسيم نصر في حديث له مذاع عن «ضيف من الشرق » – المجموعة ، حيــث عبر عن حسن ظنه بما اشتملت عليه من القصص ، فلما انتهى الــى « ضيف من الشرق » – القصة ، قال عن كاتب السطور مستدركا : « يبدو في هذه القصة ذا دراية دراسية ممتازة ، ولكنه ذو نفس لا يمتد كثيرا ولا يستطرد الا قليلا ، ولو لم يكن كذلك لكان باستطاعته ان يجعل مــن « ضيف من الشرق » رواية رحبة الجوانب شيقة السياق » (٤) ... فيا ويح نفسي : ان اوجزت ، فانا « ذو نفس لا يمتد كثيرا » ! فــاذا افضت ، فهي قصة « ممطوطة ممغوطة » !!

٢ – ويرى الصديق الزحلاوي أن ليس في القصة المجددة زيادة عما في القصة القصيرة « سوى الافاضة في وصف مشوق منفر في آن واحد لحالة الانسان في بهيميته الاصيلة ، تدفعه الغريزة دفعا جنونيا لا هوادة فيه ولا وعي ، وتسخره لعملية التلقيح ابقاء على النوع » ، ويعتقد انني غاليت « غلوا مطلقا في تجسيم الواقعة الجنسية ، وطلائعها فــي الجذب والمد ، في الدغدغة والزغزغة ، في التهرش والتداعب ، فــي

(١) و (٢) الناشر : دار الاداب ببيروت .

(٣) الحق ، لم اكن افكر في تغيير عنوان القصة ، لولا اصرار ابــداه صديقي الناشر الدكتور سهيل ادريس . اقول هذا تحت سمعه وبصره .

(٤) في حديث له أذيع من راديو لندن بالعربية صيف ١٩٥٩ .

التحبب والممانعة ، والافاضة في وصف الاندفاع وصفا ينزع القصة من الواقع الممكن ويحطها في اللامعقول » .

ان من يقرأ هذه السطور لا يساوره ادنى شك في اني من قبيل تلك الفئة من الكتاب الذين اخذوا على عواتقهم ان يدغدغوا الغرائز المتدنية عند قرائهم في طور المراهقة مهما امتد بهم العمر ، حين احسب نفسي ويحسبني بعض الكتاب ذوي الرصانة ، اني جدير بان اسلك في عداد المربين ، حتى لقد قال شاعر منهم كبير وهو بصدد الحديث عن « الظمأ والينبوع » عينها : « فقد مايزت بين هذه القصة الاخلاقية وبين غيرها من القصص الهدامة التي تعتمد في الرواج على اثارة الغرائز الجنسية ، فاكبرت نبل الكاتب وادبه واباءه وحذارته بان يكون دهقان تربية وتعليم وارشاد من الطراز الاول » (٥)

على ان هذا الغلو المدعى علي به في تجسيم « الواقعة الجنسية » منفي في فصول القصة من مبتداها . ذلك انه ليس في القصة « واقعة » جنسية قط ، وان كان هناك اغراء من قبل الفاتنة الالمانية واعجــاب وتماسك من جانب الفتى العربي ، فان تراخي فتانا في بعض اللحظــات فامام ما ترى عيناه من ايات الفتنة ، ثم ما يلبث حتى يثوب الى الواقع الذي هو فيه . ولم اقدم افانين الاغراء اعتباطا او لدغدغة الغرائز ، بل كان ذلك مني – مؤلفا – لغاية مرجوة وهدف مقصود . ورحم الله ابــا الشاعر القروي : لقد نفذ بثاقب بصيرته الى ما لم يتبينه شعــوري الواعي ... يقول : « ان ابرز ملامح القصة ... العفة ، وما رافقها من روعة الصمود للتجربة وشرف الوفاء للصديق ، وهي لب لباب القصــة ومركز ثقلها وغاية غاياتها ... والعفة كما ورد في القاموس مصدر عف اي كف عما لا يحل ويجمل . ولعل معناها يتوضح اكثر اذا قلت انهــا اشاحتك عن متعة حاصلة لك معشذة ظمأك اليها ، كائنا ما كان مــرد العفة ، أالى الدين كعفة يوسف ، ام الى الوفاء للصديق او للخطيبــة كعفة سامي . اما عفة يوسف فانها اقرب الى براءة الاطفال ... (ثم يفصل الاستاذ الشاعر القروي وجهة نظره) واما عفة سامي فهي العفة نظرا لتبادل الاعجاب والاغراء ، وتكافؤ الصبا والجمال ... فالتجربــة في عنفوانها مكتملة الشروط . ولا ضير الا يكون وازع الدين من تساؤلات سامي في اسباب عفته . فالوفاء من مكارم اخلاق العرب في جاهليتهم واسلامهم ، والامانة له اقرب الى مزاج الحر الابي من الرادع الدينــي القائم على الترغيب والترهيب ... ولقد ابدع المؤلف في تجسيم عفة سامي وتعظيم روعتها ، بتكرار صراعه مع الحية وشك وقوعه صريعا او اسيرا ، ثم تفلته وخروجه من كل جولاته ظافرا طاهرا جديرا بمواجهة صديقه (اي زوجها الالماني) محبورا سعيدا عالي الجبين » (٦) .

٣ – ويقول الناقد مؤاخذا اياي على ما صورته في الرواية مــن ذهاب البطلة اخر الامر الى غرفتها لتعود الى البطل « عارية الا من غلالة شفافة لا تستر عورة ، وترتمي الى جانبه في مقعده العريض الوثيــر ، تلصق جسمها بجسمه وخدها بخده وتتقابل الشفاه ، ومن المستغــرب حقا ان يفسح الشاب – وهو في الحالة التي صورت الجانب الضئيل منها – مجالا لحديث افلاطوني في فلسفة الدين وفي المقارنة بين الكتب السماوية الثلاثة وبرسلها الاكرمين ، والفارق بين هذه الرسالات ودعواها » .

ويحق لي ان اؤاخذ – انا – الصديق الناقد على عدم استيعابه القصة في وضعها الاول والمطول ، ذلك ان الحديث الذي سماه « افلاطونيا » لم يجر في الفصل الخامس والمرأة متعرية ، بل تم في الفصل الــذي سبقه وهي كاسية على الصورة التي تكونها المرأة في بيتها في ظهيــرة يــوم مــن ايام الخريف فــي مدينة « هانوفر » الالمانية . وفرق بين ان تدور مثل تلك الاحاديث والمرأة في تمام عريها ، وبين ان يتحاور البطلان

(٥) هذا كلام للشاعر القروي الاستاذ رشيد سليم الخوري في مقال له مطول نشر في مجلة « الاديب » البيروتية عدد سبتمبر ١٩٦٤ .

(٦) المصدر المشار اليه . وقد لاحظ الاستاذ الشاعر ان ابرز ملامح القصة ، ابتداء من الادنى : استهوان المشقة في سبيل المعرفة ، الضيافة العربية ، اهمال الزوج زوجه ، العفة ...

في ذلك وهما يتقارعان الكؤوس في جلسة وادعة لم يكن ليخطر على بال الفتى انه بسبيله الى ان يشهد من مضيفته ما سوف تسفر عنه السويعات الآتية .

في الفصل الرابع « الكاسي » تقدم هيلغا شراب الجن الى ضيفها، فلا يستسيغ طعمه ، فتعود اليه بالبيره . انه فتى غر لم تعجنه التجارب ! وتساله عن المشروب الوطني في بلده ؟ فيقول انه العرق . ويدور حديث . ثم تسمعه موسيقى كلاسيكية استلهمها مؤلفها من ضمير الشرق ، وتهيب به : « حدثني عن الشرق ، يا سام » ! والشرق عندها ما يزال « حريما في القصور » . ويفيض شارحا ، اليس ذلك هو شان الشرقي في بلاد الغرب ، يقوم الفكر الخاطئة وينقي الصور المهزوزة ؟ ويطلعها على صورة خطيبته ، ابنة عمه ، ويحدثها عن حبه لها ، وعن زواج الشباب الشرقيين الباكر عموما ، لاسباب منها « ما تضرمه شمس المشرق في افئدة الشباب من طاقة جنسة هي اعظم مما تضرم عندكم شمس الغرب، شمس شمالكم الشاحبة! » . ثم يحدثها عن اجداده الاقدمين ، سكان الصحراء ، الذين كان احدهم ايام الجاهلية « يتزوج باثنتين او خمس او عشر ، ارواء للحاجة البيولوجية ، وارضاء لمنازع الفروسية السائدة في ذلك الزمان . فلما بعث فيهم رسولنا العربي محمد ، لم تحد شريعته من تعدد الزوجات الا بقدر » .

وهنا تزهر العينان الخضراوان دهشة : اذن فانت «محمدي» ؟!

يجيبها : نعم ، يا هيلغا .

فتسأله : هل تحب المسيح ؟

ـ احبه . اننا معشر المسلمين نحب المسيح ونؤمن برسالته .فلقد لقن الانسانية المحبة والتعاطف والتسامح .

اوجزت هذا الفصل فاثقلت على القارىء ، وانما قصدت الى ان اشهده على خطل الظن الذي اعلنه الناقد الصديق : لم يكن الحديث والمرأة عارية الا من غلالة ، ولا كان الحديث « افلاطونيا في فلسفةالدين وفي المقارنة بين الكتب السماوية الثلاثة وبرسلها الاكرمين ، والفارق بين هذه الرسالات ودعواها » !

اني لفي عجب : من اين جاء ناقدي بهذه الظنون ؟!

٤ ـ ثم يمضي : « وفي النهاية يحدثها عن الوفاء ، والصداقة ، والتقاليد ، والعادات ، والشرف ، والحياء ، والعفاف ، والامانة الزوجية ... » !

هل اوجز الفصل الخامس « العاري » ، ايضا ؟ ان القارىء ان لم يسخط علي في ايجازي الاول ، لفاعل الان لا ريب ، وانا حريص على مرضاته حاجتي الى صفاء نفسه لاكسبه حكما عادلا لي على الاستاذ الزحلاوي ! فلاكتف اذن بالقول ان الفتى ، وقد احتسى كؤوسه المترعة، قد تراخى وهفت نفسه الى النوم ، فسحبت هيلغا الستارة وراء النافذة واغلقت عليه الباب ، لتعود اليه في غلالتها السوداء الشفافة تبث في نفسه الامن من ان « أوتو »، زوجها صديقه ، لن يعود قبل ساعة! ويصعد ناظريه الى الصورة على الحائط : فيتراءى له وجه أوتو ، خلف الزجاج، عابسا ! تسأله : « هل اقلب الصورة على ظهرها ؟ » ، ذلك ان الزوج حل ، في ترحاله ، ضيفا مكرما بحلب ، في بيت الفتى العربي الذي آكله وقدم اليه سريره وعرفه الى خطيبته ندى ، والرحالة الالماني هو الذي اغراه بالسفر الى المانيا ليدرس ـ على حاجته الى المال الكافي ـ ويعمل في آن ... يقول سامي للزوجة : « اني لاتمثله دائم الحضور ، يشاركنا الغرفة منذ وطئت قدمي ارضها. هذا بيته ، ملاذه بعد طويل اغتراب . فلو دخل اللحظة ، ووجد هنا صديقه العربي حيث ينبغي ان يكون هو .. ».

ـ الا تسعد قلبي المعذب ، يا سام ؟

ـ ليس في وسعي ان اخون امرءا محضته صداقتي . عشرون يوما، ونحن تحت سماء الشرق لم نفترق . أأخون الصداقة التي توثقت ، وانا اخو مودة ووفاء ؟

الوفاء للصديق ، ثم الوفاء للخطيبة الحبيبة ، كما وعى الصديق الشاعر القروي .

ويخاطب الفتى العربي ذاته فيما المرأة تغادره وحيدا : لتحقدي علي ما يشاء لك الحقد ، يا هيلغا ، ولكني لن ادعك تجرحين حس الوفاء عندي .

معذرة ، ايها القارىء ، لقد استوقفتك هنا طويلا ، ثانية ! ما بيدي ، ولكنها الحقيقة التي قصدت الى تبيانها . فاين الحديث عن « التقاليد ، والعادات ، و و ... » ، يا صديقي الناقد ؟!

٥ ـ ويؤاخذني : « وقد حلا للمؤلف ان يظهرها عارية في حين ان الزوجة مهما تفحبت فهي لا تبدو عارية فتفقد الحياء النسائي الاصيل فتصبح كالدجاجة المبلولة كما يقال في الامثال الغربية » .

وارى ان هيلغا ميلر ، الزوجة المتروكة من زوجها الرحالة سنة وراء السنة ، قد عرفت من الرجال في غياب زوجها ما تعرفه الغانية ، يؤكد ذلك ، ضمنا ، ظروفها وتصرفاتها ، وغانية من هذا القبيل لا تتورع عن شيء في سبيل نوال شاب شرقي جاء يطرق بيتها بما يحمل في اهابه وفي طوايا نفسه من سحر الشرق وفتونه .

٦ ـ ثم يقول : « يعتقد المؤلف ان غايته المثلى من الاغراق في الوصف والتطويل والترديد تنفر القارىء (من الرذيلة) لا تشوقه ، وان وسيلته هذه كفيلة بتثبيت المثل الخلقية التي كفر بها » كتاب من سوريا ولبنان ومصر ... وسمى الناقد بعضهم .

والحق اني اذ اكتب مثل هذه القصة « فتثبيتا لتلك المثل الخلقية التي آمنت بها » (٧) ، دون ان احسب حتى ذلك للكتاب الاخرين حسابا . فالادب الكريم الصادق في اعتقادي يحيا ، وما سواه يموت وان ذاع الى حين .

واذا كان قد تراءى للصديق الناقد ان يعلن : ان هذه القصة « من نوع اللامعقول » اي مما لا يعقل وقوعه ، فاني اساله : وهل ولوغ البطل في البطلة كان يجعل القصة ممكنة الوقوع في نظره ؟ لو كنت سقت البطل الى اقتراف ذلك ، فانما يتعين علي ، وعلى النقاد الشرفاء ، ان يضعوني في زمرة كتاب الجنس ومثيري الغرائز الدنية ، فهذا صنيعهم: ان يجتمع رجل وامرأة ، فيكون بينهما جذب ومد ينتهيان بهما الى فعل الحب . وهذا ليس غاية من غاياتي . واعلني توخيت ان اعلن للقارىء الشرقي العربي : ان دنيانا لم تخل ، من ذوي المروءات ، فما تزال بيننا منهم بقية .

على ان احدا من النقاد والقراء لم اسمعه يشكك في امكان وقوع الحادثة بالملابسات والارهاصات التي اجتهدت في تقديمها منذ بداية القصة في وضعها الجديد بخاصة . حتى ان الاديب الاستاذ محمود ابن الشريف بالقاهرة ذهب الى الاعتقاد بان القصة ـ وهي مروية من البطل بضمير المتكلم ـ « ليست خيالية ولا مفتعلة الحوادث » ، بل هي فيما بدا له « تجربة صادقة عاشها المؤلف وهو طالب في جامعة شتوتغارت الهندسية ، ولعب دورها على مسرح الحياة الواقعي ، ثم انفعل بها فوشاها باسلوبه واججها بعاطفته ، وقدمها لنا في مؤلفه هذا متضمنة هذه القيم الرفيعة وهاتيك المثل ... » (٨) .

ويقول الاستاذ محمود بن الشريف في مقال اخر : « والقصة بهذا المنحى لون من الوان الادب الهادف الواقعي الذي لا يوغل في الخيال ولا يعمق في الاوهام ولا يتحدى الواقع والطبائع ، بل يتحدث بما يلائم الفكر وما يوائم الحقائق » (٩) .

***

(٧) من مقدمة الطبعة الثانية « الظمأ والينبوع » .

(٨) مجلة « الاديب » عدد اغسطس ١٩٦٤ ... مما حدا بي الى التعقيب على ذلك في المجلة ذاتها في عدد لاحق (اكتوبر) ، قلت : « الحقيقة ان القصة خيالية ، وانا لم ادرس الهندسة في جامعة شتوتغارت بل درست الحقوق في جامعة القاهرة » !

(٩) في جريدة « الطلبة العرب » القاهرية العدد الصادر في ٤ ـ ٧ ـ ١٩٦٤ في زاوية « رأي وفكر وعقيدة » .

وبعد ...

لقد فندت مآخذ الناقد ما وسعني التفنيد . ولعلني اكون ، في مناقشتي ، قد حققت رجاءه بان اكون « الاديب الشامي الوحيد الذي يتقبل رأيه باعتباره رأيا فرديا لا يمس الصداقة الشخصية » . ولا ادل عليّ حرصي على تقبل الاراء الناقدة من اثباتي ، على غلافالطبعة الثانية من الكتاب ، بعض ما قيل في القصةفيوضعها الاول ، مدحا وقدحا على حد سواء .

على ان لي ملاحظات ثلاثا على الناقد الصديق :

اولاها : انه لم يقرأ القصة قراءة استيعاب . فهو ، بعد حرصهعلى الاطلاع على القصة في وضعها الاول ، قد تداخلت عنده الخطوط العامة للقصة في وضعيها الاول والمجدد ، وكذلك الجزئيات التفصيلية ،تجلى ذلك في تلخيصه اياها الذي قدمه في المقال . ثم ... اما كان اجدر به ان يعتمد « الظمأ والينبوع » وحدها محللا ناقدا ؟ فهي اكثر تعبيرا عن مفهومي الادبي ، وفيها بدلت واضفت واضفيت .

الثانية : تهجمه على كتاب سورية ، فاكثرهم ممن « تضيق صدورهم بالنقد بخاصة وبالنقاد بعامة ، ويعدون النقد اطلاقا عداوةشخصية...». ولست اريد أن ادافع عن كتاب بلدي ، فالاقليمية في الادب اخر ما ينبغي ان يتسم به الكاتب ، ولكني رأيت الكتاب السوريين يحتملون النقد حينا ويضيقون به حينا اخر ، بالقدر الذي يحتمله ويضيق به الكتاب في مصر والعراق وفي اي قطر عربي . هذا اذا استدركتفاعلنت ان ليس في سورية نقد ونقاد بما في هذين الاصطلاحين من المعنى الدقيق . أن عندنا مديحا يتساقاه الكتاب الاصدقاء ، وعندنا تجريح يتبادله المتخاصمون او المتحاسدون ، وما عدا ذلك فثمة اهمال وتفريط وسد اذان بالانامل ازاء كل عمل ادبي يطلع .

الثالثة : ان ناقدي « يكتب بالعصا لا بالقلم » . وانا ، في ذا ، اؤكد ما اعلنه ذلك الكاتب الدمشقي الذي اتى على ذكره الناقد فيصدر مقاله . الاستاذ حبيب الزحلاوي يكتب بالعصا حقيقة . ما اكثر ما يكتب بالعصا . وما اقل ما يخط بالقلم ! لا اخاله يكتب الا وهو مهتاج النفس (١٠) . لا تغضب ، يا صاحبي ، ارجو ان ينزل قولي هذا سلاما على قلبك الوادع كما انزلتكلامك سلاما على قلبي .

ولتسمح لي بان الفتك الى ان مقالك الناقد لكتابي لم يعرضلسوى ما رأيته فيهما من المعايب ... واما المحاسن التي وقعت عليها ، فقد اوجزت فيها القول ، خمس عشرة كلمة لا تزيد : « وبعد ، يحسن أنيحمد المؤلف على حسن قصده ، واناقة اسلوبه وبديع تصويره الشاعري ونقاوة لغته » .

الم اقل في بداية كلامي ، أن حاستك النقدية اكثر اتجاها الى تحري العيوب منها الى تلمس غير ذلك من الجوانب ؟ ذلك طبع – فيما يبدو لي – قد فطرتعليه . انه في بنيتك النفسية ، وانا – بعد كل هذا – سعيد به ، راض بكلما تبدي من اراء في اعمالي الروائية ما ملكت يميني قلما ادفع به عننفسي ما احسبه خطأ او تجاوزا او قصورا.

واقبل ، يا صديقي الشيخ ، تمنيات ابن حلب :

فاضل السباعي

---

(١٠) مما قرأت له ، في عدد متأخر من مجلة « الادب » القاهرية ، طرفا من هجوم شنه علىامير البيان المرحوم شكيب ارسلان ، سياسيا لا اديبا ، وقد اثار الهجوم في عنفه معركة ذات غبار .

النقد المسرحي عند اليونان

بقلم

الدكتور عطية عامر

استاذ الدروس الشرقية في جامعة ستوكهولم

بعد ان يحاول المؤلف الكشف عن الجذور الاولى للنقد الأدبي في مصر القديمة ، ينتقل الى تاريخ هذا النقد عند اليونان فيبحث عن خطوطه الأولى في مختلف النواحي ، ولاسيما عند شعراء المسرح من تراجيديين وكوميديين أمثال إشيل وسوفوكل وإيربيد وأرسطوفان ؛ ثم يتصدّى لما كتبه السوفسطائيون من هذا القبيل ، تمهيداً لعرض آراء افلاطون ؛ وينتهي الى أرسطو فيبسط آراءه في التراجيديا والكوميديا مستنداً بنوع خاص الى كتاب «الشعر» .

يُطلبُ مِنَ المكتبةِ الشرقيّة - ساحة النجمة - بيروت